مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد العاشر
1993م.

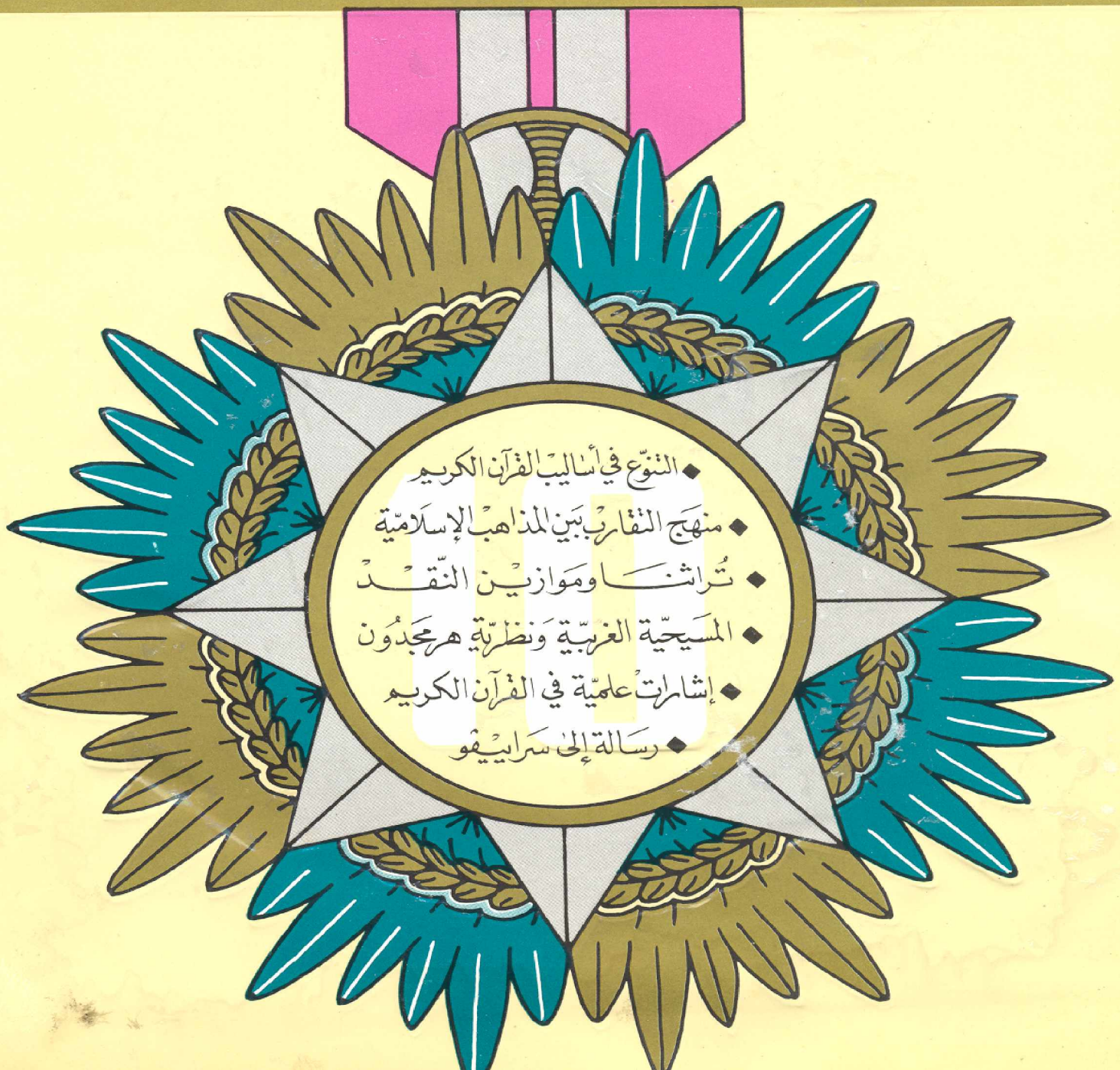

- التنوع في أساليب القرآن الكريم
- منهج التقارب بين المذاهب الإسلامية
- تراثنا وموازين النقد
- المسيحية الغربية ونظرية هرمجدون
- إشارات علمية في القرآن الكريم
- رسالة إلى سراييفو

الطبري في تاريخه

بين طريقة المحدثين ومنهج المؤرخين

بمناسبة مرور ١٠٠٠ عام هجري على وفاته

الدكتور شوقي أبو خليل
دمشق - سورية

١ ـ الطَّبَريُّ مَنْ هُوَ؟

إنَّه (أبو جعفر) محمَّدُ بنُ جريرِ بن يزيدَ بن كثير الآمُلِي الطَّبري[1]، الإمامُ صاحبُ التَّصانيف المشهورة، مولده بآمُل في سنة أربع وعشرين ومئتين، استوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته يوم السَّبت، ودُفِنَ يوم الأحد في داره لأربعٍ بقين من شوَّال سنة عشر وثلاث مئة، أيَّام الخليفة العبَّاسي الثَّامن عَشَر: (المقتدر بالله)[2]، واجتمع في جنازته خَلْق لا يُحْصَوْن، وصُلِّي على قبره عدَّةُ شهور ليلاً ونهاراً.

---

(1) آمُلُ (بضم الميم واللام) أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل، [معجم البلدان 57/1]، وطبرستان جنوبي بحر قزوين.

(2) المقتدر بالله: جعفر بن احمد المعتضد: [282 - 320 هـ = 895 - 932]، خلف المكتفي سنة 295 هـ، وهو في الثالثة عشرة من عمره، [الأعلام 121/2].

كان أبو جعفر أسمرَ، أعين[3]، نحيفَ الجسم، مديدَ القامة. فصيحَ اللِّسان، «بلغ الغاية في شرف النَّفس، وكمالِ العفَّة، ونظافةِ الملبس والأعضاء، وحلاوة المعاشرة، وحسنِ التَّفقُّد لإخوانه، وجمالِ الرِّعاية لهم، رقيق حواشي الكلام، مع دُعابة وظرف، ورقة ولطف»[4].

تحدَّث أبو جعفر عن نفسه، فقال: «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصلَّيت بالنَّاس وأنا ابنُ ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع»، وقال: «ورأى لي أبي في النَّوم أنِّي بين يدي رسول الله ﷺ، وكانت معي مخلاةٌ مملوءة حجارةً، وأنا أرمي بين يديه، فقال المعَبِّر: إنَّه إن كبر نصح في دينه، وذَبَّ عن شريعته، فحرص أبي علىٰ معونتي في طلب العلم، وأنا حينئذ صبي»[5].

رِحْلَتُهُ في طَلَبِ العِلْم:

بدأت رحلة أبي جعفر من مسقط رأسه آمُل، ولم يبلغ الثَّانية عشرة من عمره[6]، بعد أن كفاه أبوه مؤونة العيش، فكان يرسل نفقته حيث حلَّ، وكان أوَّل ما رحلَ إلى الرَّيِّ وما حولها، فأخذ من علمائها، فدرس الفقه على أبي مقاتل، وكتب عن أحمد بن حمَّاد الدولابي كتاب (المبتدأ)، وأخذ مغازيَ بنِ إسحاقَ عن سلمة بن الفضل، وعليه بنىٰ تاريخه فيما بعد، ثمَّ اختصَّ بابن حُمَيْد الرَّازي. قال أبو جعفر: «كنا نكتب عند محمد بن حميد الرَّازي فيخرج إلينا في اللَّيل مرَّاتٍ، ويسألنا عمَّا كتبناه ويقرؤه علينا، قال: وكنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدولابي، وكان في قرية من قرى الرَّيِّ، بينها وبين الرَّيِّ قطعة، ثم نَعْدو كالمجانين حتى نصير إلى محمد بن حميد، فنلحق مجلسه»[7].

---

(3) أَعْيَنُ: ضخم العَيْن واسعها، [اللِّسان: عين].

(4) من مقدمة تحقيق (تاريخ الطَّبري) 14/1، للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

(5) معجم الأدباء 49/18.

(6) لسان الميزان 103/5.

(7) معجم الأدباء 49/18 - 50.

وسار أبو جعفر إلى بغداد، عندما سمع بشهرة أحمد بن حنبل[8]، فوصلها بعيد وفاته، فسار إلى البَصْرة، فسمع عن محمَّد بن موسى الحرثي، وعمادٍ بن موسى القزاز، ومحمَّد بن عبد الأعلىٰ الصنعاني، وبشر بن معاذ، ومحمد بن بشَّار المعروف ببُنْدار، ثمَّ سار إلى الكوفة، فكتب فيها عن هناد بن السري، وإسماعيلَ بن موسىٰ الحديث، وأخذ عن سليمانَ بن خلَّاد الطلحي القراءات.

ولقي في الكوفة أبا كريب محمَّدَ بنَ العلاء الهمذاني؛ «وكان عالم عصره، ونسيجَ وحدِه، سمع من أبي كريب أكثر من مئة ألف حديث»[9].

ثم عاد أبو جعفر إلى بغداد، وانقطع إلى أحمد بن يوسف التغلبي المقرىء، ثم درس فقه الشَّافعي على الحسن بن محمد الصباح، وأبو سعيد الإصطخري من أئمة الشَّافعيَّة، ولم يلبث أن اتَّخذه مذهباً، وأفتى به سنوات.

ثمَّ سار إلى مصر ليسمع من إسماعيلَ بن إبراهيمَ المزني، والرَّبيع بن سليمان، ومحمَّد بن عبد اللّه بن الحكم، وأخيه عبد الرَّحمن، وفي طريقه عرَّج على بيروت، حيث لقي العباس بن الوليد البيروتي المقرىء، حيث ختم القرآن برواية الشَّاميين تلاوة عليه، ثمَّ تابع سيره إلى الفُسطاط، حيث بلغها سنة 253 هـ، وكان أوَّل من لقي بها أبو الحسن السَّراج المصري.

«المَحَامِدُ» في مِصْرَ:

اتَّفق أنه جمعت الرَّحلة العلميَّة إلى مصر: محمَّد بن جرير الطَّبري، ومحمَّد بن إسحاق بن خُزَيْمَة، ومحمَّد بن نصر المَرْوَزِي، ومحمَّد بن هارون الرُّوياني[10]، فَأَرْمَلُوا[11]، ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا

---

(8) أحمد بن محمد بن حنبل: [164 - 241 هـ = 780 - 855 م]، أحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، وُلد ببغداد، [الأعلام 203/1].

(9) معجم الأدباء 51/18 - 52.

(10) الرُّوياني: بضم الرَّاء، وسكون الواو، وفتح الياء، نسبة إلى رُوَيان: وهي مدينة كبيرة من جبال طبرستان، وكورة واسعة، وهي أكبر مدينة في الجبال هناك، [معجم البلدان 104/3].

(11) أَرْمَلَ القَوْمُ: نَفِدَ زادُهم، وأرمَلُوه: أنفدوه، [اللِّسان: رمل].

ليلة في منزلٍ كانوا يأتون إليه، فاتَّفق رأيهم على أن يَسْتَهِمُوا[12] ويضربوا القُرْعة، فمن خرجت عليه سَأَل لأصحابه الطَّعام. فخرجت القُرْعة على محمَّد بن إسحاق بن خُزَيْمَة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتَّى أتوضَّأ وأُصلِّي صلاة الخِيرَة، واندفع في الصَّلاة، فإذا هُمْ بالشُّمُوع، وغلام من قبل والي مصر[13] يَدُقُّ الباب، ففتحوا فنزل عن دابّته، وقال: أيُّكم محمَّد بن نصر؟ فقيل: هُوَذَا، فأخرج صُرَّة فيها خمسون ديناراً، فدفعها إليه، وقال: أيُّكم محمّد بن هارون؟ فقالوا: هُوَذا، فأخرج صُرَّة فيها خمسون ديناراً، فدفعها إليه ثمَّ قال: أيُّكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هُوَذَا يصلي، فلما فرغ دفع إليه صُرَّة فيها خمسون ديناراً، ثمَّ قال: إنَّ الأمير كان قائلاً[14]، فرأى في المنام خيالاً، قال: إنَّ المحامد طَوَوْا كَشْحَهُم[15] جياعاً، فأنفذَ إليكم هذه الصُّرر، وأقسم عليكم إذا نَفِدَتْ فابعثوا إليَّ أُمُدُّكم[16].

وطالت أيَّامه بمصر سنوات، ذهب في أثنائها إلى الشَّام، ثمَّ عاد فأخذ من فقه الشَّافعي عن الرَّبيع والمزني وأبناء عبد الحكم، ومن فقه مالك عن تلاميذ ابن وهب، وفي مصر أيضاً لقي يونس بن عبد الأعلى الصدفي، شيخ القُراء بها، فأخذ عنه قراءة حمزة وورش[17].

ثمَّ عاوده الحنين إلى بغداد، فعاد إليها، وعزم على أن ينقطع للدَّرس والتأليف، وأن يمتنع عن كلِّ ما يصرفه عنها. نقل ابن عساكر أنَّه «لما تقلَّد الخاقاني في الوزارة وجَّه إلى أبي جعفر بمالٍ كثير، فامتنع من قَبُوله، وعرض عليه القضاء فأبى، وعرض عليه المظالم فامتنع، فعاتبه أصحابه، وقالوا له: لكَ في هذا ثواب، وتحيي سنة قد دَرَست، وطمعوا في قبوله المظالم، وباكروه ليركب معهم

---

(12) يَسْتَهِمُوا: أي على أن يقترعوا.

(13) كان على مصر في هذه الفترة (أحمد بن طولون)، الَّذي أسَّس دولة الطولونيين سنة 254 هـ = 868 م، متَّخذاً الفسطاط عاصمة له، وضمَّ الشَّام حتَّى أضنة وطَرَسُوس سنة 264 هـ، [مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي 256/1].

(14) قائلاً: أي نائماً في القيلولة، وهي منتصف النَّهار.

(15) الكَشْحُ: وهو من لَدُن السُّرة إلى المتن [اللِّسان: كشح].

(16) تاريخ بغداد 164/2 - 165، طبقات المفسِّرين 112/1.

(17) مقدمة (تاريخ الطبري) 9/1، للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

لقبول ذلك، فانتهرهم وقال: قد كنتُ أظن لو رغبتُ ذلك لنهيتموني عنه، ولامهم»[18].

وقال له بعض أصدقائه: «أتنشَطُ لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد اللّه بن يحيىٰ بن خاقان؟ قال له: نعم، فمضى الرَّجل وأحكمَ له أمره، وعاد إليه فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه، فلما رآه عبيد اللّه قرَّبه ورفع مجلسه وأجرى عليه عشرة دنانير في الشَّهر، واشترط عليه أنَّ ذلك لا يعوقه عن أوقات طلب العلم ومدارسته، وأداء الصَّلاة في مواعيدها، والطَّعام في وقته.. ثم طلب إسلافَه رزق شهرٍ ليصلح به حاله، ففعل به ذلك، وأدخله حجرة التّأديب، وخرج إليه الصَّبيُّ، فلما جلس بين يديه كتب، فأخذ الخادم اللَّوح ودخل به مستبشراً، فلم تبق جارة إلَّا أهدت إليه صينيَّة فيها دراهم ودنانير، فردَّ الجميع، وقال: قد شورطت على شيء، وما هذا لي بحق، وما آخذ غيرَ ما شورطت عليه، فعرَّف الجواري الوزيرَ بذلك، فدخل إليه وقال: يا أبا جعفر سررتَ أمهات الأولاد في ولدهنَّ فبررنك، فغممتهنّ بردِّك ذلك، فقال له: لا أريد غيرَ ما وافقتني عليه»[19].

ثُمَّ ابتنى أبو جعفر لنفسه داراً برحبة يعقوب في بغداد، وزَّع فيها نفسه بين العبادة والقراءة والإملاء والتَّصنيف، وعاش بها رضي النفس، مرموق المحل، مهيباً من الخلفاء والولاة، رفيع المنزلة والمكانة[20]، قيل عنه: «كان كالقارىء الذي لا يعرف إلَّا القرآن، وكالمحدِّث الذي لا يعرف إلى الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره، وجدت لكتبه فضلاً على غيرها»[21].

وهكذا... لقد سمع أبو جرير بالعراق والشَّام ومصر من خلق كثير، حتَّى

---

(18) ابن عساكر 356/18.

(19) تاريخ ابن عساكر 356/18.

(20) مقدمة (تاريخ الطَّبري) 10/1 للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

(21) معجم الأدباء 61/18.

أضحى أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويُرْجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله، لقد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحدٌ من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بعيداً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وعارفاً بأقوال الصحابة والتَّابعين، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام النَّاس وأخبارهم[22].

«وكان ممَّن لا تأخذه في دين الله لومة لائم»[23].

قال أبو علي الطُّومَاري: كنت أُصلح القنديل[24] في شهر رمضان، بين يدي أبي بكر بن مجاهد في المسجد، لصلاة التَّراويح، فخرج ليلة من ليالي العَشْر الأواخر من داره، واجتاز على مسجده فلم يدخله، وأنا معه، وسار حتَّى انتهى إلى آخر سوق العطش، فوقف بباب مسجد محمَّد بن جرير، ومحمَّد يقرأ سورة الرَّحمٰن، فاستمع قراءته طويلاً ـ وكان حسن الصَّوت بالقراءة[25] ـ ثمَّ انصرف، فقلت له: يا أستاذ، تركت النَّاس ينتظرونك، وجئت لتسمع قراءة هذا؟! فقال: يا أبا علي، دع هذا عنك، ما ظننت أن الله تعالى خلق بشراً يقرأ هذه القراءة[26].

وقال أبو عبد اللّه الحاكم في (تاريخ نيسابور): سمعت أبا أحمد الحسين بن علي التَّميمي[27] يقول: لما رجعت من بغداد إلى نيسابور، أوَّل ما سألني محمد بن إسحاق بن خزيمة: ممن سمعت ببغداد؟ فذكرت له جماعةً ممن سمعتُ منهم، فقال: كتبت عن محمَّد بن جرير الطَّبري شيئاً؟ قلت: لا، قال: لِمَ؟ قلت: كان لا

---

(22)لترجمة أبي جعفر: طبقات المفسِّرين 110/2، البداية والنِّهاية 145/11، تاريخ بغداد 162/2، تذكرة الحفَّاظ 710/2، تهذيب الأسماء واللُّغات 78/1، طبقات الشَّافعيَّة 106/3، طبقات القرَّاء 106/2، طبقات المفسِّرين 30، الفهرست 234، لسان الميزان 100/5، معجم الأدباء 49/18، معرفة القراء الكبار 265/1 تاريخ ابن عساكر 339/18، اللُّباب لابن كثير 81/2، وفيات الأعيان 456/1. .

(23) طبقات المفسِّرين 117/1، تذكرة الحفَّاظ 711/2.

(24)(أحمل القنديل) في تاريخ بغداد 164/2.

(25) تاريخ بغداد 164/2.

(26)لسان الميزان 103/5، طبقات الشَّافعيَّة 124/3، طبقات المفسِّرين 113/1.

(27) المعروف بحسينك.

يَظْهَر، وكانت الحنابلة تمنع الدُّخول عليه، فقال ابن خزيمة: بئس ما فعلتَ، ليتك لم تكتب عن كلِّ ما كتبت عنهم، وسمعتَ من أبي جعفر، «لو سمعت منه لكان خيراً لكَ من جميع من سمعت من سواه»[28].

وأما ذكره الحسين بن علي التَّميمي من تعصب العامَّة فبيانه أنَّ بعض الحنابلة تعصَّبوا على أبي جعفر، ووقعوا فيه، فتبعهم غيرهم، ولذلك سبب، وهو أنَّ الطَّبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، لم يُصَنَّف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك، فقال: لم يكن فقيهاً، وإنَّما كان محدِّثاً، فاشتدَّ ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشغَبُوا عليه، وقالوا ما أرادوا، وادَّعوا عليه الرَّفض، ثمَّ ادَّعوا عليه الإلحاد، وكان علي بن يحيى يقول: «والله لو سُئِل هؤلاء عن معنى الرَّفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه»[29]، حاشاه من ذلك كُلِّه، بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسُنَّة رسوله، «وإنَّما تقلبوا ذلك عن أبي بكر محمّد بن داود الفقيه الظَّاهري، حيث كان يتكلَّم فيه ويرميه بالعظائم وبالرَّفض»[30].

حَسَدُوا الفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالنَّاسُ أَعداءٌ لَهُ وَخُصُومُ
كَضَرائِرِ الحسْناء قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَداً وَبُغْضاً إِنَّهُ لَدَمِيمُ

عُلُوُّ هِمَّتِهِ:

قال علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللُّغوي: إنَّ محمد بن جرير مكث أربعين سنة، يكتب في كلٍّ منها أربعين ورقة[31].

وقال الفَرْغَاني (صاحب الطَّبري): إنَّ قوماً من تلامذة ابن جرير حسبوا له

---

(28) الكامل في التَّاريخ 170/6، لسان الميزان 103/5، البداية والنِّهاية 146/11، طبقات المفسِّرين 114/1.
(29) الكامل في التَّاريخ 170/6، أحداث سنة 310 هـ.
(30) البداية والنِّهاية 147/11.
(31) تاريخ بغداد 164/2، طبقات الشَّافعيَّة 122/3، معجم الأدباء 271/5، تذكرة الحفَّاظ 711/2.

منذ بلغ الحُلُمَ إلى أن مات، ثمَّ قسموا على تلك المدَّة أوراق مصنفاته، فصار لكلِّ يوم أربع عشرة ورقة[32].

قال الطَّبري لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟

قالوا: كم يكون قدره؟

فقال: ثلاثون ألف ورقة.

فقالوا: هذا ممَّا يُفني الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثمَّ قال: هل تنشطون لتاريخ العالم ـ منذ بدء الخليقة ـ إلى وقتنا هذا؟

قالوا: كم قدرُه؟

فذكر نحواً ممَّا ذكره في التَّفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنّا لله، ماتت الهمم، فاختصره في نحو ما اختصر التَّفسير[33]، فأيُّ هِمَّة كانت هِمَّته؟!؟

قال القاضي ابن كامل: أربعة كنت أُحب بقاءهم: أبو جعفر الطَّبري، وعكرمة بن عبد الله[34]، وأبو عبد الله بن أبي خيثمة[35] والمَعْمَرِي[36]. فما رأيت أفهم منهم ولا أحفظ.

ومن فتاويه، أن رجلاً قال لامرأته: أنتِ طالق ثلاثاً بتاتاً لا خاطبتني بشيءٍ، إلا خاطبتُكِ مثله، فقالت له في الحال: أنتَ طالق ثلاثاً بتاتاً. فأتاه فقهاء بغداد

---

(32) معرفة القراء الكبار 265/1.

(33) غاية النهاية 107/2.

(34) عكرمة بن عبد الله البربري المدني (أبو عبد الله): [25 - 10 هـ = 645 - 723 م]، تابعي، كان من أعلم النَّاس بالتَّفسير والمغازي، طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاث مئة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعياً، مات بالمدينة المنوَّرة هو و(كثير عزَّة) في يوم واحد، فقيل: مات أعلم النَّاس، وأشعر الناس، [الأعلام 244/4].

(35) زهير بن حرب بن شداد النَّسائي البغدادي (أبو خيثمة): [160 - 234 هـ = 777 - 849 م] محدِّث بغداد في عصره، له كتاب (العلم) أكثر الإمام من الرِّواية عنه، [الأعلام 51/3].

(36) أبو علي الحسن بن شبيب البغداد المَعْمَرِي: [200 - 295 هـ]، محدِّث، من أوعية العلم، من كتبه: السُّنن في الفقه، وعمل اليوم والليلة، [سير أعلام النبلاء 510/13].

بأنَّها لا بد تطلَّق، وأنه عليه أن يجيبها بمثل ما قالت فتصير بذلك طالقاً، فدلَّه شخصٌ على أبي جعفر، فجاءه، وأخبره بما جرى عليه، فقال له: امضِ ولا تعاود الأيمان، وأقم على زوجك بعد أن تقول لها: أنت طالق ثلاثاً بتاتاً إن طلقتك، فتكون قد خاطبتها بمثل ما خاطبتكَ به، فوفَّيت يمينك ولم تطلِّقها[37].

وأخرج ابن عساكر عن طريق أبي معبد عثمان بن أحمد الدينوري، قال: حضرت مجلس محمَّد بن جرير، وحضر الفضل بن جعفر بن الفرات بن الوزير، وقد سبقه رجل فقال الطَّبري للرَّجل: ألا تقرأ؟ فأشار إلى الوزير، فقال الطَّبري: إذا كانت النَّوبة لك، فلا تكثرت بدجلة ولا الفرات[38]، لطف وبلاغة وعدم التفات لأبناء الدُّنيا.

قيل عنه: فيه تشيُّع يسير، لأنَّه صحَّح حديث غدير خُم، وهذا رجم بالظَّن الكاذب، فابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، أخرج ابن عساكر من طريق محمَّد بن علي بن محمَّد بن سهيل بن الإمام، قال: سمعت أبا جعفر الطَّبري، وجرى ذكر علي، فقال أبو جعفر: من قال إنَّ أبا بكر وعمر ليسا بإمامَيْ هدى إيش هو؟ فقال له ابن الأعلم: مبتدع، فقال له الطَّبري منكراً عليه: مبتدع، مبتدع هذا، يقتل من قال إنَّ أبا بكر وعمر ليسا بإمامي هدى، يقتل، يقتل[39].

قال الدَّالي[40] فيه بديهة، وقد جرى ذكره[41].

محمَّد بنُ جرير ... إمامُ أهلِ زمانهِ
وكلُّ جاهلِ علم ... فعارف بمكانهِ
وكتبهُ قد أبانت ... على علمهِ وبيانهِ
عفا المُهيمنُ عنه ... وزادَ في إحسانهِ

---

(37) طبقات المفسرين 117/1.

(38) لسان الميزان 103/5.

(39) لسان الميزان 100/5.

(40) أبو عمرو الدَّاني: عثمان بن سعيد بن عثمان: [371 - 444 = 981 - 1053 م]، أحد حفَّاظ الحديث، ومن الأئمة في علم القرآن وروايته وتفسيره له أكثر من مئة تصنيف، [الأعلام 206/4].

(41) غاية النهاية في طبقات القُرَّاء 108/2.

ومما يُذْكر أنَّ أَبا جعفر مات حَصُوراً، لم يتزوَّج مطلقاً.

أَشْهَر تَلامِذَتِهِ:

لأَبي الحسن أَحمد بن يحيى بن علي بن يحيى: (المدخلُ إلى مذهب الطَّبري ونصرته)، وكتاب (الإجماع) في الفقه على مذهب أبي جعفر.

ولأَبي بكر بن كامل كتبٌ على مذهب الطَّبري، منها كتاب (جامع الفقه)، وكتاب (الشُّروط)، وكتاب (الوقوف).

أَمَّا أَبو الفرج المعافى بن زكريا النَّهرواني، الَّذي عرف بالجريري نسبة لابن جرير الطَّبري، فقد نشر مذهبه، وحفظ كتبه، وشرح كتاب (الخفيف).

وروى عن الطبري: أبو شعيب عبد اللّه بن الحسن بن أحمد بن أَبي شعيب الحَرَّاني، وأَبو عمرو محمَّد بن أَحمد بن حَمْدان النَّيْسَابُوري، وأبو الحسن علي بن علامة الحافظ الحَرَّاني، وأبو الطَّيب عبد الغفَّار عبيد اللّه بن السري الحُصَيْبي، وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطَّبراني، وأبو محمَّد الفَرْغاني، ومخلد الباقرحي، وأحمد بن كامل، ومحمَّد بن جعفر، وأحمد بن أبي طالب الكاتب، وأبو بكر الشَّافعي.. وخَلْق سواهم كثير.

وقرأ عليه أيضاً محمَّد بن محمد بن فيروز الكرجي، شيخ الأهوازي، وأحمد بن عبد اللّه الجبي[42].

وروى عنه الحروف محمد بن أحمد الدَّاجوني، وعبد الواحد بن عمر، وعبد اللّه بن أحمد الفرغاني، وروى عنه ابن مجاهد أيضاً.

مُؤَلَّفَاتُ الطَّبَري:

جاء في (مفتاح السَّعادة 252/1): «له مصنَّفات مليحة في فنون عديدة، تدل

(42) غاية النهاية 107/2.

على سعة عِلْمِهِ، وغزارة فضله، كان ثقَةً في نقله، أما كتبه ـ حسب التَّسلسل الهجائي ـ فهي[43]:

1 ـ (آداب المناسك): وهو ما يحتاج إليه الحاج من يوم خروجه، وما يختاره له من الأيَّام لابتداء سفره، وما يقوله ويدعو به عند ركوبه ونزوله، ومعاينة المنازل والمساجد، وإلى انقضاء حجه.

2 ـ (آداب النَّفس): «عمله على ما ينوب الإنسان من العرائض في جميع أجزاء جسده، فبدأ بما ينوب القلب واللِّسان والبصر والسَّمع»[44].

3 ـ (اختلاف علماء الأعصار في أحكام شرائع الإسلام): ذكر فيه أقوال الفقهاء: مالك والأوزاعي، والثَّوري، والشَّافعي، وأبو حنيفة، وأبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، صاحب أبي حنيفة)، ومحمد بن الحسن الشَّيباني، وإبراهيم بن خالد، ألّفه ليتذكَّر به أقوالَ مَنْ يناظره.

4 ـ (أحاديث غدير خُم): فيه فضائل علي رضي الله عنه، وذكر فيه طرق حديث خُم[45].

5 ـ (بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام): قدَّم له بكتاب سماه (مراتب العلماء). بدأ بالمدينة المنوَّرة، ثمَّ مكَّة المكرَّمة، ثمَّ العراقَيْن (الكُوفَة والبَصْرة)، ثمَّ الشَّام، وخُراسان، ثمَّ أبواب الفقه، وخرج منه كتاب الطَّهارة، وكتاب الصَّلاة، وكتاب الزَّكاة، وكتاب الشُّروط، وكتاب القضاة والمحاضر والسِّجلات، وكتاب الوصايا، وكتاب أدب القاضي، وكتاب البيان عن أصول الأحكام.

6 ـ (التبصير في معالم الدين): وهي رسالة إلى أهل آمُل (طبرستان) يشرح فيها ما يتقلَّده من أمور الدين.

---

(43) انظر: طبقات المفسِّرين 115 و116، ومقدمة (تاريخ الطبري) 15/1.

(44) ابن عساكر 325/8.

(45) خُمٌّ: اسم موضع غدير خم، «خُمٌّ وادٍ بين مكَّة والمدينة عند الجحفة به غدير»، [معجم البلدان 389/2].

7 ـ **(تاريخ الرسلِ والملوك)**، **(أو تاريخ الأمم والملوك)**: الذي يعد أوفى عمل تاريخي بين مصنَّفات العرب، منذ الخليقة، وحتى سنة 302 هـ، وهو المعروف الآن باسم: **(تاريخ الطبري)**.

8 ـ **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت من الأخبار**: وهو من عجائب كتبه، فابتدأ بما رواه أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه مما صحَّ عنده بسنده، وتكلَّم على كلِّ حديث منه، فابتدأ بِعِلَلِهِ وطرقه، وما فيه من الفقه والسُّنن، واختلاف العلماء، وحُججهم، وما فيه من المعاني، فخرج منه مُسنَد العشرة، وأهل البيت، والموالي، ومن مسند ابن عباس قطعةً، وكان قصده فيه أن يأتي بكلِّ ما يصح من حديث رسول الله ﷺ عن آخره، ويتكلَّم على جميعه حسب ما ابتدأ به، فلا يكون لِطَاعنٍ في شيء من علم رسول الله مطعن، ويأتي بجميع ما يحتاج إليه أهل العلم كما فعل في التَّفسير، فيكون قد أتى على علم الشَّريعة من القرآن والسُّنن، فمات قبل تمامه[46].

9 ـ **(جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**: وهو من أجلِّ التَّفاسير على الإطلاق وأعظمها، أملاه في بغداد سنة 283 هـ، إلى 290 هـ[47]، قال عنه أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسْفَريني: «لو سافر رجل إلى الصِّين، حتَّى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير، لم يكن ذلك كثيراً»[48].

قال أبو محمَّد عبد اللّه بن أحمد الفَرْغاني في تاريخه، وهو المعروف بكتاب (الصِّلة). وهو كتاب وصل به تاريخ ابن جرير، فتمّ من كتب ابن جرير كتاب: (تفسير القرآن) وجوَّده، وبيَّن فيه أحكامه، وناسخه ومنسوخه، ومشكله وغريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التَّأويل والعلماء في أحكامه وتأويله، والصَّحيح لَدَيْه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدين فيه، والقصص وأخبار الأمَّة

---

(46) طبقات المفسِّرين 115.

(47) ترجمة إلى الفارسيَّة بأمر منصور بن يحيى السَّاماني، وتُرْجِمَ أيضاً إلى التركية، [بروكلمان 213/1 و 249 الملحق].

(48) معرفة القراء الكبار 264/1، غاية النهاية 107/2، كشف الظنون 437/1، البداية والنهاية 145/11.

والقيامة، وغير ذلك مما حواه من الحِكَم والعجائب، كلمة كلمة، وآية آية.. فلو ادَّعى عالم أن يصنِّف منه عشرة كتب كلُّ كتاب منها يحتوي على عِلْم مفرد عجيب مُسْتَقْصَىٰ لفعلَ[49].

وقال السُّيُوطي في (الإتقان): وكتاب ـ التَّفسير ـ أجلُّ التَّفاسير وأعظمها، فإنَّه يتعرَّض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين[50].

وقال النَّووي: أجمعت الأُمَّة على أنَّه لم يصنَّف مثل تفسير الطَّبري[51].

10 ـ (الجامع): وهو كتاب حسن في القراءات، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشَّواذ، وعلل ذلك وشرحه، واختار منها لنفسه قراءة لم يخرج بها عن المشهور.

11 ـ (حديث الطَّير): قال ابن كثير: رأيت له كتاباً جمع فيه حديث الطَّير[52].

12 ـ (الخفيف): في أحكام شرائع الإسلام، وهو مختصر من (اللَّطيف).

13 ـ (ذيل المذيل): ويشتمل على تاريخ من قُتِلَ أو مات من أصحاب رسول الله ﷺ في حياته أو بعده، على ترتيب الأقرب فالأقربِ منه، أو من قريش من القبائل، ثمَّ ذكر من مات من التَّابعين والسَّلف بعدهم.

14 ـ (الرَّدُّ على الحرقوصيَّة)[53].

---

(49) تاريخ بغداد 164/2، البداية والنهاية 146/11، الكامل في التاريخ 170/6.

(50) الاتقان 243/2 - 244.

(51) كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون 437/1.

(52) البداية والنهاية 146/11.

(53) فسَّر بروكلمان (الحرقوصية) بالحنابلة، معلِّلاً ذلك بأن أحمد بن حنبل كان من أولاد زهير بن حرقوص، ولم يصح ذلك، والذي في تاج العروس أن حرقوص بن زهير كان صحابياً، ثم كان مع علي بصفّين، فصار خارجياً عليه وقُتل، وربما كان في ذلك تفسير سليم للكتاب.

15 ـ (**الرَّدُّ على ذي الأسفار**): يردّ فيه على داود بن علي الأصبهاني[54].

16 ـ (**الرَّدّ على ابن عبد الحكم على مالك**).

17 ـ (**صريح السُّنَّة**): رسالة ذكر فيها مذهبه، وما يدين به.

18 ـ (**طرق الحديث**).

19 ـ (**عبارة الرؤيا**).

20 ـ (**كتاب العدد والتنزيل**).

21 ـ (**كتاب الفضائل**): بدأ بفضل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم، وتكلَّم على تصحيح غدير خُم، واحتج لتصحيحه، وأتى من فضائل علي بن أبي طالب بما انتهى إليه.

22 ـ (**لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام**): وهو مذهبه الَّذي اختاره وجرَّده واحتج له، و (الخفيف) مختصر هذا الكتاب.

23 ـ (**مختصر الفرائض**).

24 ـ (**المسترشد**).

25 ـ (**المسند المجرد**).

26 ـ وكتاب (**الوقف**): ألَّفه للخليفة المكتفي[55]، ذكر فيه ما اجتمعت عليه أقوال العلماء وسَلِمَ من الخلاف في هذا الموضوع.

هذه التَّصانيف اختفى معظمها من زمن بعيد، ولم يَحْظَ منها بالبقاء إلى يومنا

---

(54) داود بن علي: [270 - 271 هـ = 816 - 884 م] أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، تنسب إليه الطائفة الظاهريَّة، وسُمِّيت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسُّنَّة، وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس، [الأعلام 333/2].

(55) في البداية والنهاية: 146/11: «أرادالمقتدر أن يقف وقفاً يجتمع عليه أقاويل العلماء..»، فإن كان قد كتبه قبل سنة 295 هـ فقد كتبه للمكتفي، وإن كان قد كتبه بعد سنة 295 هـ فقد كتبه للمقتدر بالله.

هذا، وبالشُّهرة الواسعة سوى كتاب التَّفسير: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وكتاب التَّاريخ: (تاريخ الأُمم والملوك).

وقال أبو محمَّد عبد اللّه بن أحمد الفَرْغاني بعد أن ذكر تصانيف الطَّبري: «وكان أبو جعفر ممن لا يأخذه في الله لومة لائم، ولا يعدل في علمه وتبيانه عن حقٍّ يلزمه لربِّه وللمسلمين إلى باطل لرغبة، ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشَّناعات من جاهل وحاسد وملحد، وأمَّا أهل الدِّين والورع فغير منكرين علمه وفضله وزهده وتركه للدُّنيا مع إقبالها عليه، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلَّفها له أبوه بطبرستان يسيرة»[56].

ومن شعره:

إذا أَعْسَـرتُ لم يَعْلَمْ رفيقي ... وأستَغْني فَيَسْتغني صَدِيقي
حَيَائي حافظٌ لي ماءَ وَجْهي ... وَرِفْقي في مُطَالبتي رَفيقي
ولو أنِّي سمحتُ ببذلِ وجْهي ... لكنتُ إلى الغِنَى سَهْلَ الطَّريقِ[57]

* * *

2 ـ الطبري في تاريخه:

كانت بداية التَّأليف العلمي في التَّاريخ عند المسلمين، وثيقة الصِّلة بالحديث الشَّريف، والسِّيرة المباركة، فالحديثُ الشَّريفُ درايةً ورواية، والتاريخ عند المسلمين دراية ورواية، وحسبنا دليلاً على اشتراك العِلْمَيْن في المصادر والمناهج، أنّ كلَّ جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذي سبقه، وأن المتن في كلِّ رواية كان مسبوقاً بالسَّند أو الإسناد[58].

والمعروف أنَّ المحدِّثين عَنَوْا بالإسناد عناية كبيرة، وكانوا لا يثقون بالحديث إلَّا إذا كان إسناده سلسلةً متصلةً من الرُّواة الموثوق بهم، ولذلك اتَّجهوا إلى دراسة

---

(56) الكامل في التَّاريخ 170/6، والبداية والنهاية 146/11.
(57) تاريخ بغداد 165/2، البداية والنهاية 145/11.
(58) مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، ص 33.

الرُّواة، والوصول إلى درجة تدقيق كلٍّ منهم في نقل الأحاديث، وألَّف العلماء بعض كتب الطَّبقات.. وكان هذا كلُّه أساساً لِعلم نقد الرُّواة، وهو المعروف في مصطلح الحديث باسم: (الجَرْحِ والتَّعديل)[59].

لا شك، أن أبا جرير تأثَّر في طريقة كتابة التاريخ بعلم الحديث الَّذي كان من أساطينه، فاستعمل طريق الإسناد الَّتي كانت مستعملة من قبل رواة الحديث، ولعلَّ أبرزَ ما ظهر على أسلوب الطبري في التَّاريخ من أثر المحدِّثين، ذكرُهُ الرِّوايات المختلفة للأخبار الَّتي أوردها في كتابه، فكما أن المحدِّث يذكر الصِّيغَ المختلفة لمتن الحديث كما نقلها كلُّ راوٍ، فإنَّ الطَّبري أثبت في كتابه مجموعةً كبيرةً من مختلف الرِّوايات، والأخبار التَّاريخية، استوعبت سائِرَ ما ذكره مَنْ تقدَّمه من المؤرِّخين.

ولقد لوحظ أن الطَّبري استطاع أن يربط مختلف الرِّوايات بعضها ببعض ببراعة نادرة.

فتحت عنوان: «ذكر الوقت الذي عُمِلَ فيه التأريخ»[60]، يورد الطَّبري في تاريخه تسع روايات: رواية أُولى عن ابن شهاب[61]، وثانية عن الشعبي [61]، وثالثة عن ميمون بن مَهْران[63]، ورابعة عن محمد بن سيرين[64]، وخامسة عن ابن

---

(59) التَّجريح من جرح الشهادة أو الشاهد، أي ردَّها أو ردَّه، والتجريح قول أئمة الحديث والفقه عن أحد الرُّواة أو الشهود أنَّه غير ثقة، أو أمين في رواية أو شهادة، والتَّعديل من عدل الشاهد أي زكَّاه، فالتَّعديل: التَّسليم لأحد بأنه حاصل على العدالة.

(60) تاريخ الأمم والملوك 388/2.

(61)ابن شهاب الزُّهري محمد بن مسلم: [58 - 124 هـ = 678 - 742]، أوَّل من دوَّن الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء.

(62) الشَّعبي، عامر بن شراحيل: [19 - 103 هـ = 640 - 721 م]، من رجال الحديث الثقات، يضرب المثال في حفظه.

(63) ميمون بن مَهْران الرَّقِّي: [37 - 117 هـ = 657 - 735 م]، كان ثقة في الحديث.

(64) محمد بن سيرين البَصْري: [33 - 110 هـ = 635 - 729 م]، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تفقَّه وروى الحديث.

عبد الحكم[65]، وسادسة عن ابن عباس[66]، وسابعة عن عبيد بن عمير[67]، وثامنة عن عمرو بن دينار[68]، وتاسعة عند سعيد بن المسيب[69].

ويبدو أنَّ اهتمام الطَّبري في استقصاء أسباب النُّزول اضطرَّه إلى مراجعة كثير من القضايا التَّاريخيَّة، ونظراً لصفاء ذاكرته، وقوة حافظته، بدا له أن يؤلِّف في التَّاريخ، وهو بمنزلة تاريخ عام بعد الفراغ من تفسيره، فأفاد كثيراً من المادَّة التَّاريخية الَّتي جمعها مؤرخو القرن الثاني، وقد استلزم ذلك بذل مجهودٍ ضخم في تحرّي سيرِ الرجال الذين يصح الاعتماد على أقوالهم، والأخذ برواياتهم[70].

إذن، الارتباط بين الحديث والتَّاريخ، ترك أثراً لا يُمْحَا في أُسلوب التَّأْليف التَّاريخي بالاعتماد على السَّند، وتظهر في تاريخ الطَّبري وتتجلَّى الصِّلة الوثيقة بين عِلْمَيْ الحديث والتَّاريخ، والمعروف أن الطَّبري محدِّثٌ مفسِّر، قبل أن يكون مؤرِّخاً.

وفي القرن الرَّابع، القرن الَّذي توفي الطَّبري مع نهاية عقده الأوَّل، استقلَّ علم التَّاريخ عن العلوم الأخرى، كالحديث والتفسير والفقه، وأخذ ينمو مبتعداً عن التَّقيُّد بطريقة المحدِّثين، مختصراً الإسناد، بل استغنى بعض المورِّخين المتأخرين في مناهجهم عن الإسناد كلياً في أغلب الأخبار، كابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الفداء.

---

(65) عبد الله بن عبد الحكم: [150 - 214) هـ = 767 - 829 م]، كان من أصحاب مالك، انتهت إليه الرياسة بمصر بعد أشهب.

(66) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: [3 ق، هـ ـ 68هـ = 619 - 687 م]، حبرالأمة، الصَّحابي الجليل.

(67) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، ولد على عهد النَّبيِّ ﷺ قاله مسلم، وعدَّه غيره في كبار التَّابعين، وكان قاص أهل مكَّة مجمع على ثقته.

(68) عمرو بن دينار: [46 - 126 هـ = 666 - 743 م]، فقيه، ثقة ثبت، كان مفتي أهل مكة.

(69) سعيد بن المُسَيَّب: [13 - 94 هـ = 634 - 713 م]، سيِّد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزُّهد والورع.

(70) تحليل نصوص تاريخية، د. صلاح مدني، جامعة دمشق، كلية الآداب: 1959 - 1961.

يقول د. محمد حسين الذَّهبي[71]: «ابن جرير ـ كما هو معروف عنه ـ لم يلتزم الصِّحة في كلِّ ما يرويه، والذي ينظر في تفسيره، يجد فيه ممَّا لا يصحُّ شيئاً كثيراً، كما أن ما يرويه في تاريخه لا يعدو أن يكون من قبيل الأخبار التي تحتمل الصِّدق والكذب، ولم يقل أحدٌ بأنَّ كلَّ ما يذكر في كتب التَّاريخ ثابت صحيح».

«ولو رجعنا إلى تفسير ابن جرير الطَّبري، وتتبعْنا الآيات الَّتي وردت في النَّصارى لوجدنا كثيراً مما يرويه ابن جرير في تفسير هذه الآيات، يدور على عبد الملك ـ بن عبد العزيز بن جريج ـ الَّذي يعبِّر عنه بـ (ابن جريج)»[72]. وهو قطب الإسرائيليات في عهد التابعين، قال عنه الإمام مالك: «إنه لا يبالي من أين أخذ، كان ابن جريج حاطب ليل»[73]

وإذا كان للإسرائيليات خطرها، فإنَّ هذا الخطر من الممكن تلافيه إذا ذُكِرَت لنا أسانيدها، وحذفها يعمِّي علينا كلَّ شيء لا شك، وابن جرير أورد كلَّ قول بإسناده، فهو وإن كان لم يتحرَّ الصِّحة فيما يرويه، إلَّا أن عذره في ذلك، أنَّه ذكر لنا السَّند مع كلِّ رواية يرويها، وكانوا يرون أنَّهم متى ذكروا السَّند فقد خرجوا عن العهدة، فإن أحوال الرِّجال كانت معروفة في العهد الأوَّل، وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة.

ويتابع محمد حسين الذَّهبي فيقول: لقد التزم ابن جرير في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها، إلَّا أنه في الأعمِّ الأغلب، لا يتعقب الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف، لأنَّه كان يرى ـ كما هو مقرَّر في أصول الحديث ـ أن من أسند لك، فقد حمّلك البحثَ عن رجال السَّند، ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة، ومع ذلك فابن جرير يقف من السَّند أحياناً موقف النَّاقد البصير، ويعدل من يعدل من رجال الإسناد، ويجرح من يجرِّح منهم، ويرد الرِّواية التي لا يثق بصحتها، ويصرِّح برأيه فيها بما يناسبها[74].

---

(71) التَّفسير والمفسِّرون 190/1.

(72) وابن جريج من أوَّل من صنَّف الكتب بالحجاز.

(73) التَّفسير والمفسِّرون 198/1.

(74) التَّفسير والمفسِّرون 212/1.

قال الطَّبري في تفسيره (13/16)، في الآية 94 من سورة الكهف: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وبَيْنَهُم سَدًّا﴾ . يقول ما نصُّه: روي عن عكرمة في ذلك، يعني في ضم سين (سَدًّا) وفتحها، ما حدَّثنا به أحمد بن يوسف، قال: حدَّثنا القاسم، قال: حدثنا حجاج، عن هارون، عن أيوب، عن عكرمة قال: ما كان من صنعة بني آدم فهو السَّد، يعني بفتح السِّين، وما كان من صنع الله فهو السُّد، ثمَّ يعقِّب على هذا السَّند، فيقول: وأمَّا ما ذكر عن عكرمة في ذلك، فإنَّ الَّذي نقل ذلك عن أيوب (هارون)، وفي نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقاة أصحابه.

أمَّا الدكتور فتحي الدُّريني فيقول: «واصطفاء الإمام الطَّبري لكلمة (التَّأويل: والتزامه بها، إيثاراً لها عن كلمة (التَّفسير)، وهو الخبير بحقائق مدلولات المفردات في القرآن الكريم، لم يكن عن غفلة منه عن المعنى القرآني الَّذي جرى استعماله فيه، ممَّا يدل على أن الاجتهاد بالرَّأي من مقوِّمات تفسيره الأساسيَّة، فلم يكن تفسيره ـ على التَّحقيق ـ مُخلصاً نفسه للمأثور المَحْض، حتى يكون من مدوِّنيه، على ما ذهب إليه ابن خلدون وَهْماً، بل كان مزيجاً من التَّفسير بالمأثور والتَّفسير بالرأي معاً، فضلاً عن أنَّ موقفه من المأثور، هو موقف النَّاقد المُمَحِّص، أو المرجِّح، بل والرَّافض أحياناً بالحجة والدَّليل.

هذا وبإمعان النَّظر فيما يعرض الإمام عن (كثرة الرؤيا) يُرى أنَّه إنَّما يقصد من وراء ذلك إلى (استقصاء) ما ورد في مدلول اللَّفظ المفرد، أو الجملة، أو الآية الكريمة، ومن معانٍ متَّحدة، أو متغايرة ـ توقيفيَّة كانت أو لغويّة ـ أو ما صدر عن أئمة التَّفسير الثقات من آراء هي ثمرة الاجتهاد بالرَّأي بغية نقدها، وتمحيصها، وترجيح ما هو أقوى دليلاً، أو رفضها جملة ـ إذا لم تعتمد أصلاً شرعياً ثابتاً، ثمَّ تراه يقيم الدَّليل على ما يذهب إليه، ويرجِّحه أو يرفضه حازماً غير متردِّد، حتى لم يسلم من نقده الثِّقات من تلاميذ ابن عباس، من مثل (مجاهد)[75].

(75) دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر 300/1 وما بعدها.

وبذلك فهو من الثِّقات، ويكفيه توثيق الإمام البخاري له، على الرَّغم من تشدُّد البخاري في شروط الرِّواية الصحيحة. وعلى ما سبق.. إنَّ الملاحظة التي أخذها النَّقدة على الطَّبري، هي عينها الَّتي أخذوها على جمهرة مؤرخينا إلى القرن الرابع الهجري، وهي إهمالهم (النَّقد التَّاريخي) بمفهومه العلمي، فكان عملهم منصرفاً إلى نقد رواة الأخبار، دون نقد الرِّواية نفسها، وبدهي أن ذلك من تأثير علم الحديث، فإن وثق الرُّواة لدى المحدِّث، فلا داعي لمناقشة الرِّواية، خصوصاً إن لم يكن في متنه ما يخالف ما جاء في كتاب الله المجيد، وهذا ما جرى عليه المؤرخون الَّذين اهتمُّوا في أن يكون التَّاريخ قائماً على الثِّقة بالشَّاهد الأوَّل، والاعتماد على صدق روايته، وصحة إدراكه، واستقامة أخلاقه[76].

أمَّا نقد الرِّواية في ذاتها، وتحقيقها، فقد كان مرحلة ما بعد الطَّبري مباشرة.

وعلى الرَّغم من هذه الملاحظة الَّتي اشتركَ فيها سائر مؤرِّخينا إلى القرن الرَّابع الهجري، فإنَّ إجماعاً على كون الطَّبري من أعظم مؤرخينا، إن لم يكن في طليعتهم، وعلى أنَّه كان صادقاً، أبيَّ النفس، زاهداً في المال عزوفاً عن الدُّنيا، فلم يعرف عنه أنَّه مَالأَ ذوي الجاه، أو السُّلطان، أو قبل نوالهم.

إنَّ طريقة المحدِّثين الَّتي سار عليها الطَّبري في كتابه: (تاريخ الأُمم والملوك)، اعتمدت على ذكر الحوادث مرويَّة بمقدار ما عنده من الطُّرق، مع ذكر السَّند، حتَّى يتَّصل بصاحبه، لا يبدي في ذلك رأياً في معظم الأحيان، وهذه الطَّريق هي الَّتي سلكها في معظم كتابه، وفيما عدا ذلك، ينقل من الكتب، فيصرح باسم الكتاب أحياناً. أو ينقل عن المؤلِّفين من غير تعيين الكتاب الذي نقل عنه أحياناً أخرى.

وقد كان اعتماد الطَّبري هذه الطريقة، مثاراً للنقد عند بعض الباحثين، فقالوا: إنَّ سياقه الأخبار دون تمحيصها، أمر لا يليق بالمؤرِّخ النَّاقد البصير، وإذا كانت طريقة رواية الخبر بذكر السَّند تضمن صحة الأخبار وتمحيصها في الأخبار

---

(76) القول لسيديو Sediuot في: تحليل نصوص تاريخية ص 51.

التي وقعت في الإسلام، فإنَّ هذه الطَّريقة تقصُر عن ضمان صحَّة ذلك فيما قبل الإسلام[77].

وعذر الطَّبري في ذلك هو عذر رواة الحديث، الَّذين يذكرون الحديث بطرقه ورجاله، تاركين الحكم للقارىء. أمانة للعلم وإبراء للذِّمة.

قال الطَّبري في مقدِّمة كتابه: «وليعلم النَّاظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كلِّ ما أحضرتُ ذكرُه فيه، مما شرطت أني راسمه فيه، إنَّما هو على ما رويتُ من الأخبار الَّتي أنا ذاكرها فيه، والآثار الَّتي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أُدرِك بحجج العقول، واستنبِط بفكر النُّفوس إلَّا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غيرَ واصلٍ إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم، إلا بإخبار المجدين، ونقل النَّاقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبرٍ ذكرناه عن بعض الماضين ممَّا يستنكره قارئُه، أو يستشنعه سامعه. من أجل أنَّه لم يعرف له وجهاً في الصَّحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنَّه لم يُؤتَ في ذلك من قبلنا، وإنَّما أتِيَ من قِبل بعض ناقليه إلينا، إنَّما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا»[78].

وفي هذا النَّص الواضح الصَّريح، ما يشير إلى مذهبه فيما ورد في كتابه من تلك الأخبار.

وأيًّا ما كان (أبو التَّفسير، وشيخ المؤرخين)، فإنَّ كتابه: (تاريخ الأمم والملوك)، سيظل بما اشتمل عليه من الرِّوايات الأصيلة، والنُّصوص النَّادرة في أسلوبه الرَّائع الرَّصين. أشملَ كتاب للتَّاريخ عند العرب، وأوفى عمل تاريخي بين مصنَّفاتهم، أقامه الطَّبري على منهج مرسوم، بلغت فيه الرِّواية مبلغها من الثِّقة

(77) مقدِّمة تحقيق (تاريخ الطَّبري) 24/1.

(78) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) 7/1 و8.

والأمانة والاتقان، أكمل ما قام به المؤرخون قبله، كاليعقوبي[79]، والبلاذري[80]، والواقدي[81]، وابن سعد[82]، ومهَّد السَّبيلَ لمن جاء بعده، كالمسعودي[83]، وابن مسكويه[84]، وابن الأثير[85]، وابن خَلْدون[86]، وأبي الفداء[87]، والذَّهبي[88].

خاتمة:

إن غاية التاريخ في إدراك الماضي كما كان، لا كما نتوهَّم أنَّه كان، وكذلكَ ليس هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون، أو كما نريده أن يكون[89].

وإذا ضاعت الأصول ضاع التَّاريخ معها، ولكن، أيجب أن نجمع كلَّ الأُصول، أمْ نكتفي ببعضها؟

---

(79) أحمد بن إسحاق اليعقوبي: [توفي بعد 292 هـ = بعد 905 م]، مؤرِّخ جغرافي كثير الأسفار.

(80) أحمد بن يحيى البلاذُري: [ت 279 هـ = 892 م]، مؤرِّخ، جغرافي، نسَّابة، من كتبه: (فتوح البلدان) و (أنساب الأشراف)، و (كتاب البلدان الكبير).

(81) محمد بن عمر بن واقد السهمي: [130 - 207 هـ = 747 - 823 م] من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم.

(82) محمد بن سعد الزُّهري: [168 - 230 هـ = 784 - 845 م]، مؤرِّخ ثقة، من حفَّاظ الحديث، وعُرِف بكاتب الواقدي.

(83) علي بن الحسين بن علي [ت 346 هـ = 957 م]، مؤرِّخ، رحالة، من تصانيفه: (مروج الذَّهب)؛ (التنبيه والإشراف)..

(84) أحمد بن محمد بن يعقوب مِسْكَوَيه: [ت 421 هـ = 1030 م]، مؤرِّخ بحاث، من كتبه: (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)..

(85) علي بن محمَّد بن عبد الكريم الجَزْري، عز الدين بن الأثير: [555 - 630 هـ = 1160 - 1233 م]، المؤرِّخ الإمام، كتابه الهام: (الكامل في التاريخ).

(86) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون: [732 - 808 هـ = 1332 - 1406 م]، الفيلسوف المؤرِّخ، العالم الاجتماعي، البحاثة، اشتهر بكتابه: (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر).

(87) إسماعيل بن علي بن محمود: [672 - 732 هـ = 1273 - 1331]، الملك المؤيِّد، صاحب حماة، مؤرِّخ جغرافي.

(88) محمد بن عثمان الذَّهبي: [673 - 748 هـ = 1274 - 1348]، حافظ، مؤرِّخ، علَّامة محقِّق.

(89) نحن والتَّاريخ، قسطنطين زريق، دار العلم للملايين، ط 5، سنة 1981.

لقد كان جواب (شيخ المؤرِّخين) ـ كما يبدو من واقع تاريخه ـ: نجمع كلَّ الأصول، ما دام (بعضها) مضمناً فيها، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ: «شَكَّ المؤرِّخ رائدُ حكمته».

والواقع يقول: «إنَّه لا يمكن الحكم على المنهج المتَّخذ في بحث مادَّة ما ووزنه علمياً ومنطقياً، إلَّا من خلال طبيعة تلك المادَّة وخصائصها الَّتي تفرضه على الباحث»[90]، لذلك جاءت بعد الطَّبري مباشرة، وبعد أن قدَّم المادَّة العلميَّة الوفيرة الغزيرة، وبعد أن «روى الكثير عن الجمِّ الغفير»[91]، كما يقول ابن كثير، جاءت مرحلة النُّضج، فكان (مصطلح التَّاريخ)[92]، جرياً على التَّسمية التي أطلقها العلماء المسلمون على علم (مصطلح الحديث)، حيث أصبحنا نستند إلى أساس علميٍّ وثيق. ولقد أتحفوا علم التَّاريخ ونهجه بقواعد لا تزال في أسسها وجوهرها محترمة في الأوساط العلميَّة حتَّى يومنا هذا، وهي الَّتي توَّجها ابن خلدون، فكتب في مقدِّمته الرَّائعة في (طبائع العمران)، وجعل في هذه الطبائع محكًّا علميًّا لنقد الأخبار التَّاريخيَّة وتمحيصها، فسجل بذلك فوزاً كبيراً.

كما أن رسالة القاضي عياض[93] في علم المصطلح، من أنفس ما صُنِّف في موضوعها، لقد سما بها القاضي عياض إلى أعلى درجات العلم والتدقيق في عصره، والواقع أنَّه ليس بإمكان أكابر رجال التَّاريخ اليوم أن يكتبوا أحسن منها في كثير من نواحيها، وذلك على الرَّغم من مرور أكثر من ثمانية قرون عليها، فإنَّ ما جاء فيها من مظاهر الدِّقة في التَّفكير والاستنتاج تحت عنوان: (تحرِّي الرِّواية والمجيء باللَّفظ) يضاهي ما ورد في الموضوع نفسه في الكتب الحديثة اليوم. بل يمكن القول: بل تمتُّ إلى (مصطلح الحديث) بصلة وثيقة، فالتَّاريخ دراية أولاً ثمَّ

---

(90) دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر 147/1.

(91) البداية والنهاية 145/11.

(92) انظر (مصطلح التاريخ) د. أسد رستم، المكتبة العصريَّة، صيدا، الطبعة الثَّانية.

(93) عياض بن موسى اليحصبي السَّبتيّ: [467 - 544 هـ = 1083 - 1149 م] عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته. كتبه كثيرة، أما الكتاب الذي نحن في صدده، فهو: (الإطلاع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السَّماع) في مصطلح الحديث.

رواية، كما أن الحديث دراية ورواية[94].

أما قال الرَّازي[95]: «إذا كتبتَ فقمِّش، وإذا حدَّثتَ ففتِّش»[96]، والتقميش هو الجمع، ويكفي (شيخ المؤرخين) فضلاً، أنَّه جمع المادَّة العلميَّة التَّاريخيَّة بدقَّة لمن جاء بعده، وسيبقى من العلماء الكبار، المشهود لهم بالأمانة في التَّفسير، وصاحب أشمل كتاب للتَّاريخ عند العرب، وما ندَّعي له العصمة من الخطأ، أو الكمال في العمل، ولكن لا يحلُّ لنا أن نناله بالباطل والهوى، وكما قال أبو العباس بن سريج[97]: «محمَّد بن جرير فقيه عالم»، وهذه الشَّهادة شهادة جدٍّ صادقة بحقِّ علَمٍ من كبار أعلامنا الخالدين.

رِثَاؤُهُ:

رثى الطَّبريَّ عدد كبير من أهل الدِّين والأدب، قال ابن الأعرابي[98] في مرثيَّة له طويلة[99]:

حَـدَثٌ مُفْـظِعٌ وخـطبٌ جَليـلُ ... دقَّ عن مثلِهِ اصـطبـارُ الصَّبُـورِ
قـامَ ناعي العُلومِ أجمـعُ لمَّـا ... قـامَ نـاعي محمَّـد بن جـريـرِ
فهـوتْ أنجـمٌ لهـا زاهـراتٌ ... مؤذِنَـاتٌ رُسُـومَهـا بـالـدُّثـورِ
وتغشَّى ضِيَـاهَـا النَّيِّـر الإشـر ... ـراقِ ثـوبُ الدُّجُنَّـةِ الـدَّيجـورِ
وغـدا روضُهـا الأنيقُ هشيمـاً ... ثمَّ عـادتْ سهـولُنـا كـالـوُعـورِ
يـا أبـا جعفـرٍ مضيتَ حميـداً ... غيـرَ وانٍ في الجِـدِّ والتَّشميـرِ

---

(94) يقول د. أسد رستم: إنَّ المثودولوجية الغربية الَّتي تظهر اليوم لأوَّل مرَّة بثوب غربي ليست غريبة عن مصطلح الحديث.

(95) محمد بن إدريس [ت 277 هـ].

(96) مقدِّمة ابن الصَّلاح، ص 211.

(97) أحمد بن عمر بن سريج: [249 - 306 هـ = 863 - 918 م]، فقيه الشَّافعية في عصره، له نحو 400 مصنَّف.

(98) أحمد بن محمد بن زياد: [246 - 340 هـ = 860 - 952 م]، مؤرخ من علماء الحديث.

(99) تاريخ بغداد 166/2، تذكرة الحفاظ 715/2.

بين أجرٍ على اجتهادك موفو ... رٍ وسعي إلى التُّقى مشكورِ
مستحقّاً به الخلودَ لدى جنـ ... ـةِ عَدْنٍ في غبطةٍ وسرورِ

ورثى ابنُ دريد[100] ابن جرير بقصيدة منها.

لَنْ تستطيعَ لأمرِ اللّهِ تعقيباً ... فاستنجد الصَّبْرَ أو فاستشعرِ الحوبا
وافزع إلى كنف التَّسليم وارضَ بما ... قضى المهيمنُ مكروهاً ومحبوبا
مَنْ صاحبَ الدَّهرَ لم يعدم مجلجلة ... يظل منها طوال العيش منكوبا
إنَّ البلية لا وفرٌ تزعزعه ... أيدي الحوادث تشتيتاً وتشذيبا
ولا تَفَرق ألّافٍ يفوت بهم ... بَيْنٌ يغادر حبل الوصل مقضوبا
لكنَّ فقدانَ من أضحى بمصرعهِ ... نورُ الهدى وبهاءُ العلم مسلوبا
أودى أبو جعفر والعلم فاصطحبا ... أعظم بذا صاحباً إذا ذاك مصحوبا
إنَّ المنيَّةَ لم تتلف به رجلاً ... بل أتلفتْ علماً للدِّين منصوبا
أهدى الرَّدى للثَّرى إذ نال مهجته ... نجماً على من يعادي الحقَّ مصبوبا
كان الزَّمانُ به تصفو مشاربه ... فالآن أصبح بالتكدير مقطوبا
كلّا وأيامُه الغرُّ التي جعَلت ... للعلم نوراً وللتَّقوى محاريبا
إذا انتضى الرأي في إيضاح مشكلةٍ ... أعادَ منهجَها المطموسَ ملحوبا
إن قال قاد زمام الصِّدق منطقُهُ ... أو آثر الصَّمتَ أولى النفس تهييبا
لو تعلم الأرضُ ما وارت لقد خشعت ... أقطارُها لك إجلالاً وترحيبا
ودَّت بقاعُ بلاد اللّه لو جعلت ... قبراً له فحباها جسمُهُ طيبا

* * *

(100) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: [223 - 321 هـ = 838 - 933 م]، من أئمة اللُّغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء، وأعلم الشعراء.

(101) القصيدة كاملة في تاريخ بغداد 167/2.

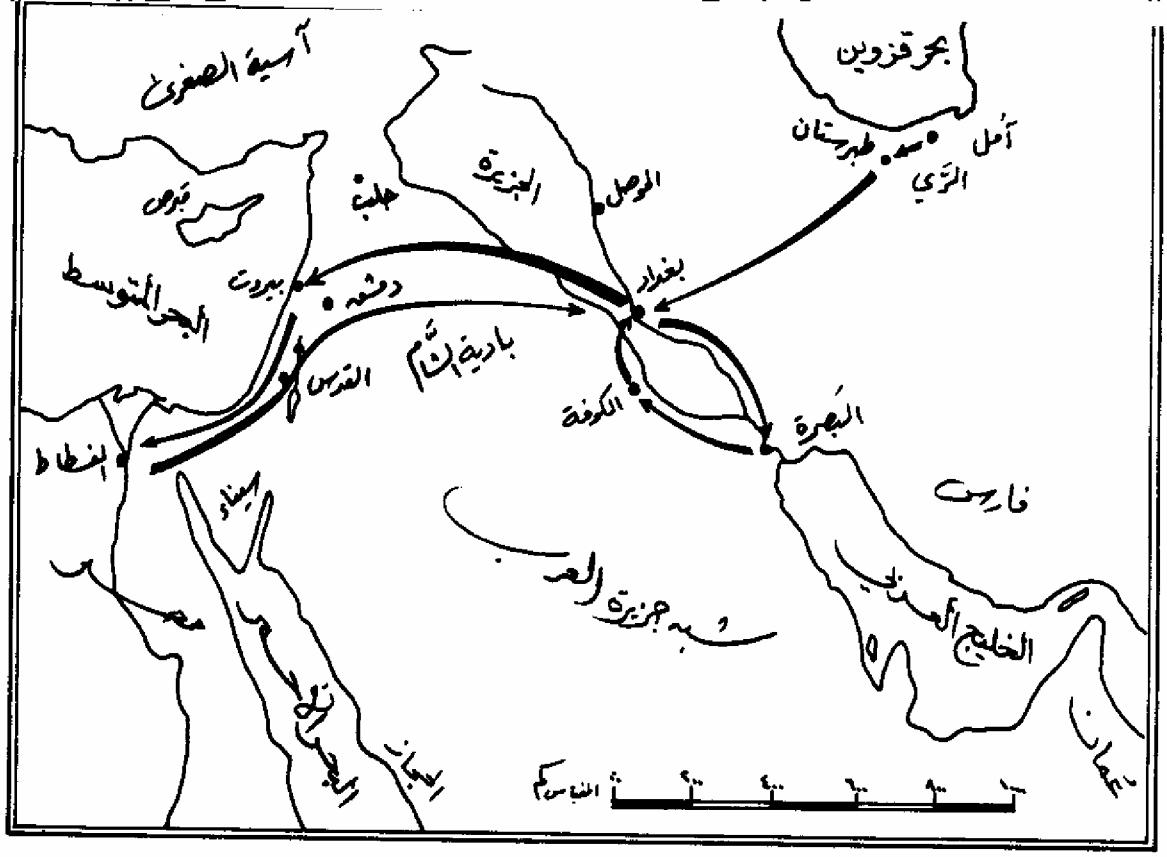

رِحْلَةُ الطبْري في طَلَبِ العِلمِ

١ ـ آمُل ـ الرَّي. ٢ ـ الرَّي ـ بغداد. ٣ ـ بغداد ـ البَصْرة. ٤ ـ البصرة ـ الكوفة. ٥ ـ الكوفة ـ بغداد.
٦ ـ بغداد ـ بيروت ٧ ـ بيروت ـ الفسطاط. ٨ ـ الفسطاط ـ بغداد.

المصادر

1 ـ الإتقان في علوم القرآن، السُّيوطي.

2 ـ تاريخ البداية والنِّهاية، ابن كثير. مكتبة المعارف ـ بيروت، ط 2 سنة 1974.

3 ـ البداية والنِّهاية، ابن كثير. مكتبة المعارف ـ بيروت، ط 2 سنة 1974.

4 ـ تاريخ الأُمم والملوك محمد بن جرير الطَّبري، دار المعارف بمصر، 1960.

5 ـ تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ حيدر أباد ـ الهند.

6 ـ التفسير والمفسِّرون، د. محمد حسين الذَّهبي، دار الكتب الحديثة، ط 2، سنة 1976 م.

7 ـ تذكرة الحفاظ، الذَّهبي (شمس الدين)، دار التراث العربي ـ بيروت.

8 ـ تحليل نصوص تاريخية، د. صلاح مدني، مطبعة جامعة دمشق ـ كلية الآداب: 1959 - 1960 م.

9 ـ تقريب التهذيب لخاتمة الحفاظ، العسقلاني، دار المعرفة ـ بيروت، ط 2، سنة 1975 م.

10 ـ دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، د. فتحي الدريني، دار قتيبة ـ بيروت، ط 1، سنة 1988 م.

11 ـ الرِّسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنة المشرَّفة، محمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت 1986 م.

12 ـ طبقات المفسِّرين، محمد بن علي بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

13 ـ غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط 3، سنة 1982.

14 ـ الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير الجزري، إدارة الطباعة المنيريَّة، سنة 1348 هـ.

15 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى القسطنطي (الشهير بالملا كاتب الحلبي)، مكتبة المثنى ـ بغداد.

16 ـ لسان الميزان، نسخة مصورة عن الطبعة الهنديَّة، ط2، سنة 1972، مؤسَّسة الأعلمي ـ بيروت.

17 ـ مروج الذهب، المسعودي. دار الفكر ـ بيروت، ط 5 سنة 1973.

18 ـ مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، د. سيدة إسماعيل كاشف، دار الرائد العربي ـ بيروت 1983 م.

19 ـ مصطلح التَّاريخ، د. أسد رستم، المكتبة العصرية، صيدا، ط 2.

20 ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، الذَّهبي (شمس الدين)، مؤسَّسة الرسالة، 1984 م.

21 ـ مفتاح السَّعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبرى زادة، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

22 ـ ميزان الاعتدال، الذهبي (شمس الدين)، دار المعرفة ـ بيروت.

23 ـ نحن والتاريخ، قسطنطين زريق، دار العلم للملايين، ط 5 سنة 1981 م.

24 ـ وفيات الأعيان، ابن خلكان، دار صادر ـ بيروت ومصادر أخرى ذكرت في حينها...